هناك فتاة صغيرة أيضًا في المحل تتولى أعمال الطهي والتنظيف. ولست متزوجًا أو لدي عائلة. فلا يوجد هناك سوى ثلاثتنا، نعيش معًا في هدوء.»

وأكمل قائلًا: «لكن منذ شهرين، أراني سبولدنج الإعلان الذي قرأته لتوك. وقال إنه كان يود أن يكون ذا شعر أحمر لأنه سمع أن الوظيفة سهلة وراتبها جيد. وأنه سمع أيضًا أن هزكيا هوبكنز مليونير أمريكي. ويبدو أن هوبكنز كان ذا شعر أحمر، وغريب الأطوار؛ فأراد أن تذهب ثروته إلى أشخاص ذوي شعر أحمر، لذلك عندما مات، ترك أمواله لتصل إليهم بهذه الطريقة الغريبة.

وأوضح سبولدنج أن هوبكنز عاش في لندن منذ سنوات. ويبدو أنه أحب المكان، لذلك ترك أمواله للرجال ذوي الشعر الأحمر من هذه المدينة. وقال مساعدي إن العرض بدا مثاليًّا لي.»

أكمل السيد ويلسون: «فأغلقنا المحل، وذهبنا إلى مكتب الرابطة. وعندما وصلنا يا سيد هولمز، وجدنا الشوارع مكتظة برجال ذوي شعر أحمر. لم أكن أعلم أبدًا أن عددنا كبير هكذا. وكان جميع هؤلاء الرجال يسعون إلى الفوز بالوظيفة.

لم أعتقد أن أمامي أية فرصة للفوز بالوظيفة، لكن سبولدنج أخبرني أن الوظيفة لن تُمنح إلا لشخص ذي شعر أحمر متوهج اللون مثل شعري. فتدافعنا عبر الحشد وصولًا إلى باب المكتب، وانتظرنا. ولم يمر وقت طويل حتى وصلنا إلى الداخل.

وفي المكتب كان هناك رجل يجلس على مائدة وشعره يشبه شعري في درجة اللون الأحمر. تحدث مع كل رجل، واحدًا تلو الآخر. وطرح عليهم جميع الأسئلة، ثم أخبرهم أنهم غير ملائمين للوظيفة.

وأخيرًا جاء دوري. بدا الاهتمام الشديد بي على الرجل من اللحظة الأولى، حتى إنه طلب من الجميع الرحيل، وأشاد بشعري. وليتأكد من أنني الشخص المناسب للوظيفة، أمسك بشعري بكلتا يديه وشدَّه! وعندما صحت من الألم، شرح لي أن عليه توخي الحذر. فكثير من الرجال ارتدوا شعرًا مستعارًا أو صبغوا شعرهم.

صافحني بعد ذلك، وأخبرني أنني قد حصلت على الوظيفة، وسار ناحية نافذة المكتب، وفتحها، وصاح في الحشد قائلًا إن الوظيفة قد شُغلت.»

قال ويلسون: «كان اسمه دانكان روس. وأخبرني أنني سأعمل من الساعة العاشرة صباحًا حتى الثانية بعد الظهر. وأوضحت له أن لدي محلًّا أديره، لكن سبولدنج قال إنه سيسعده الاهتمام بالمحل نيابة عني.

أخبرني كذلك أن مهمتي ستتمثل في نسخ الموسوعة البريطانية، على أن أبدأ العمل في اليوم التالي مباشرةً.»

أردف ويلسون: «وهكذا كنت هناك في اليوم التالي. والغريب في الأمر أن كل شيء سار وفقًا للاتفاق. كان السيد روس هناك ليساعدني في بدء العمل، وبدأت في نسخ الموسوعة، بدءًا من الحرف "A". وكان السيد روس يتركني بمفردي في بعض الأحيان. وعاد في الساعة الثانية، وأخبرني أن عملي قد انتهى لذلك اليوم، ودفع لي أجري، وذهبت إلى المنزل.

وهكذا يا سيد هولمز، استمر الحال أسبوعًا تلو الآخر: أنسخ الموسوعة في الفترة من العاشرة إلى الثانية. وكل سبت أحصل على راتبي. وبعد فترة لم أعد أرى السيد روس كثيرًا. واستمر الوضع كذلك ثمانية أسابيع. كتبت عن الرماية والدروع والهندسة المعمارية، وكنت أتمنى أن أصل إلى الحرف "B"، لكن اليوم انتهى كل شيء.»

بدا السيد ويلسون منزعجًا وهو يكمل قصته قائلًا: «ذهبت إلى المكتب هذا الصباح كالمعتاد، لكن الباب كان مقفلًا. وكانت هناك لافتة صغيرة معلقة على الباب، يمكنك أن تقرأها بنفسك.» وأعطى لهولمز لافتة كُتب عليها:

لم تعد هناك رابطة لذوي الشعر الأحمر. ٩ أكتوبر/تشرين الأول ١٨٩٠.

قال هولمز: «يا سيد ويلسون، إن قضيتك شديدة الغرابة. رجاءً أكمل، ماذا فعلت بعد ذلك؟»

أجاب ويلسون: «سألت مالك العقار عما إذا كان يعلم أين ذهب السيد روس، فأجاب إنه لا يعرف أحدًا بهذا الاسم. لكنه قال إن الرجل ذا الشعر الأحمر، الذي استأجر المكتب، قد انتقل إلى مكتب جديد في ١٧ شارع كينج إدوارد.

ذهبت إلى ذلك العنوان يا سيد هولمز، لكنه كان مصنعًا وليس مكتبًا. فعدت إلى المنزل. ورأى سبولدنج أنه ربما تصلني أخبار من الرابطة، لكنني قررت المجيء إلى هنا، لعلك تستطيع مساعدتي.»

قال هولمز: «لقد كنت محقًّا في المجيء إلى هنا يا سيد ويلسون، فهذه قضية فريدة من نوعها. وقد تكون أخطر مما تتخيل. أخبرني ما المدة التي كان مساعدك سبولدنج قد قضاها في العمل لديك عندما عرض عليك الإعلان؟»

فأجاب ويلسون: «حوالي شهر.»

– «وكيف عيَّنته لديك؟»

قال ويلسون: «نشرت إعلانًا في الجريدة، وتقدم الكثير من الناس، لكنني منحت الوظيفة لسبولدنج لأنه كان لديه الاستعداد للعمل بنصف الأجر.»

سأل هولمز: «هل يمكنك أن تصفه لي؟»

– «إنه صغير الحجم، لكنه قوي البنية، حليق الذقن والشارب، وهناك علامة بيضاء على جبينه نتيجة لحمض تعرض له في حادث.»

اعتدل هولمز في جلسته على الكرسي، وقال: «وأذناه؟ هل هما مثقوبتان لتعلق بهما أقراط؟»

– «في الواقع يا سيد هولمز إنهما مثقوبتان بالفعل.»

قال صديقي: «لقد سمعت ما يكفي يا سيد ويلسون. اليوم هو السبت، آمل أن أتوصل إلى إجابة لما حدث بحلول يوم الاثنين.»

بعد أن غادر جابيز ويلسون، جلس هولمز على كرسيه، وقال لي: «واطسون، إنني مضطر أن أطلب منك عدم التحدث إلي مدة خمسين دقيقة.» وبذلك أغلق عينيه، وجلس دون حركة حتى ظننت أن رفيقي قد غلبه النوم، ثم فجأة هب من على كرسيه وسألني: «هل يمكن لمرضاك الاستغناء عنك بضع ساعات يا واطسون؟»

فأجبته: «نعم، بالطبع.»

قال لي: «حسنًا، فلتأتِ معي»، وخرجنا من الباب.

لم يمر وقت طويل حتى كنت أنا وشيرلوك هولمز واقفين أمام محل ويلسون. سار صديقي في الشارع الهادئ جيئة وذهابًا، متفحصًا بعناية جميع المنازل. وتوقف ثانيةً أمام المحل. ونقر بعصاه على الرصيف بصوت عالٍ. وأخيرًا ذهب إلى باب المحل ونقر عليه. فأجابه رجل صغير السن حليق الذقن والشارب.

قال هولمز: «آسف على الإزعاج، لكن هل يمكنك إخباري بكيفية الذهاب إلى ستراند من هنا؟»

وصف الرجل لهولمز الاتجاهات، ثم أغلق الباب. استدار صديقي إلي وقال: «إنني أعرف هذا الرجل يا واطسون. لا يضاهيه الكثيرون في الذكاء والجرأة؛ هل لاحظت ركبتي سرواله؟»

فأجبته: «لا، ماذا لاحظت؟»

رد هولمز: «ما توقعت رؤيته بالضبط.»

أشرت إلى الأرض وسألته: «لكن لماذا نقرت على الرصيف؟»

«قبل أن أجيب عن أي أسئلة أخرى، يجب علينا استكشاف المزيد.» اتبعت هولمز وهو ينتقل عبر الزاوية إلى الشارع الموجود خلف محل السيد ويلسون. كان طريقًا مزدحمًا ومختنقًا مروريًّا.

قال هولمز: «هل ترى المباني هنا يا واطسون؟ أحاول أن أتذكر شوارع لندن قدر الإمكان. هناك محل مورتيمر للتبغ، ومحل جرائد، ثم مصرف سيتي آند سوبربن، ومطعم، ومحل عربات ماكفارلين. أمر مثير للاهتمام للغاية.»

استدار بعد ذلك ناحيتي، وقال: «ليس هناك شيء آخر نفعله هنا يا صديقي. ماذا عن قضاء فترة ما بعد الظهيرة في الاستمتاع بحفلة موسيقية في قاعة سانت جيمس؟ إنها قريبة وسيكون الأمر تغييرًا جيدًا.» لم يفاجئني اقتراحه، فكنت أعلم أن هولمز يستمتع للغاية بالموسيقى. في واقع الأمر، كان ماهرًا جدًّا في العزف على الكمان، وكان يعزف لي في كثير من الأحيان.

وأثناء مشاهدتي له وهو يستمتع بالحفلة الموسيقية، أخذت أفكر في حالاته المزاجية المختلفة. فعندما يكد في العمل على قضية ما، يكون جادًّا وحازمًا وغير ودود. أما عندما كان يستمع إلى الموسيقى بعد ظهر ذلك اليوم، فكان خاليًا من الهموم وسعيدًا وحالمًا، كما لو لم يكن هناك ما يشغل باله. لكنني أعلم أيضًا أن حالاته المزاجية السعيدة تعني في أحيان كثيرة أنه توصل إلى حل لقضية ما. لو كنتُ مجرمًا، فلست موقنًا أيًّا من حالات هولمز المزاجية يمكن أن أُفضل.

خارج القاعة، وبعد أن استعاد هولمز نشاطه، استدار ناحيتي وقال: «أعتقد يا واطسون أنه قد حان الوقت لمنع جريمة خطيرة. سأحتاج إلى مساعدتك الليلة. هل يمكنك إحضار مسدسك ومقابلتي في شارع بيكر الساعة العاشرة؟ شكرًا لك. والآن لديّ عمل يجب أن أقوم به.»

وأثناء مشاهدتي لهولمز وهو يبتعد مسرعًا، بدأت أفكر في قضية رابطة ذوي الشعر الأحمر. لقد سمعت كل ما سمعه رفيقي، ورأيت كل ما رآه. لكن اكتشف شيرلوك هولمز أن جريمة خطيرة على وشك الحدوث، لكنني لم أكتشفها. إلى أين سنذهب الليلة؟ وماذا سنفعل؟ ما الجريمة التي ستُرتكب؟ يجب أن أنتظر قبل أن أتوصل إلى إجابات عن هذه الأسئلة.

عندما وصلت إلى شارع بيكر تلك الليلة، وجدت عربتين تجرهما الخيول خارج المبنى. وفي الداخل، كان هولمز برفقة ضابط شرطة ورجل آخر.

قال هولمز: «أظن يا واطسون أنك تعرف السيد بيتر جونز من شرطة سكوتلاند يارد.» ثم قال وهو يشير إلى الرجل الآخر: «وهذا السيد ميري ويزر، مدير مصرف سيتي آند سوبربن. سينضم إلينا في المغامرة التي سنخوضها الليلة.»

قال السيد ميري ويزر: «أرجو ألا تكون مغامرتنا مجهودًا لا طائل منه.»

رد جونز: «لا تقلق، فإنني عملت مع السيد هولمز من قبل. وقد ساعد شرطة سكوتلاند يارد مرة أو مرتين في الماضي. ويمكن أن يصبح مخبرًا جيدًا في أحد الأيام.»

قال هولمز مبتسمًا: «أعدكما أن الليلة ستستحق العناء. فستعني مبلغًا كبيرًا من المال لك يا سيد ميري ويزر؛ والقبض على شخص ظللت تطارده كثيرًا من السنوات يا سيد جونز.»

قال السيد جونز: «هذا صحيح يا سيد ميري ويزر. وفقًا لما أخبرني به السيد هولمز، فإن المساعد الذي يعمل بالمحل، ويطلق على نفسه اسم سبولدنج، ليس سوى جون كلاي الذي تطارده منذ فترة طويلة. إنه قاتل ولص؛ ما من مجرم في لندن أتمنى إلقاءه في السجن مثل هذا الرجل.»

غادرنا نحن الأربعة الشقة، واستقل السيد جونز والسيد ميري ويزر إحدى العربتين، في حين ركبت أنا وهولمز العربة الأخرى. وصلنا سريعًا إلى المصرف الذي رأيناه بعد ظهر ذلك اليوم. أرشدنا السيد ميري ويزر إلى داخل المبنى، واتبعناه عبر مجموعة من الأبواب والأروقة، وهبطنا عددًا من درجات السلم. وأخيرًا دخلنا غرفة كبيرة مليئة بالصناديق.

أبدى هولمز ملاحظة قائلًا: «تبدو هذه الغرفة كمأمن رائع من اللصوص.»

قال السيد ميري ويزر، وهو ينقر بعصا المشي على الأرضية الحجرية: «إنها آمنة للغاية. ما هذا؟ تبدو الأرضية جوفاء!»

أمر هولمز غاضبًا: «رجاءً، الهدوء! وإلا سينفضح أمرنا جميعًا.» أخرج صديقي عدسته المكبرة وجثا على ركبتيه. أخذ يتفحص الأرضية بعناية، ثم وقف واستدار ناحيتي.

قال هولمز: «أظن يا واطسون أنك قد توصلت الآن إلى أننا في قبو مصرف سيتي آند سوبربن. ما لا تعلمه هو أن هذا المصرف قد تلقى شحنة كبيرة من الذهب من مصرف فرنسا. والصناديق الموجودة في هذه الغرفة مليئة بالذهب. وللأسف، لسنا وحدنا الذين نعلم بهذا الأمر. ولذلك نحن هنا الليلة.»

واستطرد قائلًا: «والآن سننتظر. اختبئوا من فضلكم خلف هذه الصناديق. يجب أن نكون متأهبين لأي شيء. هل معك مسدسك يا واطسون؟ رائع. إذا سمعت طلقًا ناريًّا، فلا تتردد في إطلاق النار ردًّا عليه.»

وضع هولمز غطاء المصباح عليه، وساد الظلام الغرفة. انتظرنا في صمت، وبدأت قدماي وذراعي تؤلمني وأنا منحنٍ خلف أحد الصناديق. انتظرنا أكثر من ساعة، لكن بدا الأمر لي أطول من ذلك بكثير.

فجأة، ظهرت شرارة ضوء خافتة تخرج من الأرضية، وصارت تزيد في الحجم حتى تمكنا من ملاحظة أنه ضوء يشع من حفرة في الأرضية. سحبت يد بشرية صخرة كبيرة جانبًا، ثم ظهر وجه رجل. دفع الرجل نفسه إلى الخارج واستدار ليساعد رجلًا آخر ذا رأس مليء بالشعر شديد الحُمرة.

في تلك اللحظة، هب شيرلوك هولمز من مكانه، وأمسك بالرجل الأول. قفز الرجل ذو الشعر الأحمر في الحفرة ثانية، ولم يتمكن جونز من الإمساك به. أخرج الرجل الأول مسدسًا، لكن هولمز أوقعه من يده، فسقط على الأرض محدثًا صوتًا عاليًا.

قال هولمز بهدوء: «لا فائدة يا جون كلاي. لقد أمسكنا بك.»

رد جون كلاي بابتسامة عابسة: «حسنًا، لكن شريكي تمكن من الفرار.»

قال هولمز: «على العكس، فهناك ثلاثة رجال شرطة بالجانب الآخر من هذا النفق الذي حفرته. وأنا متأكد أنهم قد أمسكوا به الآن. هل تتكرم يا سيد جونز، بتكبيل السيد كلاي بالأصفاد؟»

قال كلاي: «عليك أن تناديني بـ«يا سيدي»، إذا لم يكن لديك مانع. كما ستقول لي «رجاءً». فمع كل هذا تجري في عروقي دماء ملكية.»

قال جونز: «حسنًا، إذن هل تتكرم يا سيدي بالصعود خلفي إلى أعلى. فهناك عربة تنتظر جلالتك لتوصلك إلى مركز الشرطة.»

قال كلاي معتدًا بنفسه: «هذا أفضل.» وانحنى لثلاثتنا وبيتر جونز يأخذه بعيدًا.

بعد العودة إلى شارع بيكر، أمدني هولمز بتفاصيل القضية. «انظر يا واطسون، إن السبب وراء رابطة ذوي الشعر الأحمر كان واضحًا لي منذ البداية. فالرابطة ونسخ الموسوعة ما كانا سوى حُجة لإبعاد السيد ويلسون عن المحل بضع ساعات كل يوم.

أولًا، حرص السيد كلاي على الحصول على وظيفة لدى السيد ويلسون بأن عرض عليه العمل لديه في مقابل نصف الأجر، ثم نشر هو وشريكه ذو الشعر الأحمر إعلانًا في الجريدة. وحرص كذلك السيد كلاي على أن يرى السيد ويلسون الإعلان ويتقدم للوظيفة.»

سألته: «لكن كيف توصلت إلى ما كانا يخططان له؟»

«كنت أعلم أنه ما من شيء ذي قيمة في المحل نفسه. فتذكرت قول السيد ويلسون إن مساعده يقضي فترات طويلة من الوقت في القبو. في الواقع، لقد كان يقضي الكثير

من الساعات يوميًّا هناك. فأصبح من الواضح لي أنه يحفر نفقًا إلى مبنى آخر. وعندما خرج السيد كلاي ليفتح لنا الباب، أثبتت لي ركبتا سرواله الممزقتان والمتسختان أنني كنت محقًّا.»

أكمل هولمز حديثه قائلًا: «يقع محل السيد ويلسون في شارع لا يوجد به سوى منازل. وكنت أعي أن كلاي لم يكن يحفر نفقًا إلى أي من هذه المنازل. وعندما نقرت بعصا المشي أمام المحل، كنت أتحقق من وجود نفق. وعندما لم أجده، علمت أن النفق بالخلف.

وأصبح السؤال حينئذٍ هو أين يتجه كلاي في حفره؟ عندما رأيت الشارع الموجود خلف المحل، لاحظت مصرف سيتي آند سوبربن على الفور. كان على الجانب المقابل مباشرة للجزء الخلفي من محل السيد ويلسون. وعلمت أن المصرف هو المستهدف من جهود السيد كلاي.»

سألته: «لكن كيف علمت أنهما سيتحركان الليلة؟»

أوضح هولمز: «أغلق كلاي وشريكه مكتب رابطة ذوي الشعر الأحمر، الأمر الذي أوضح لي أنهما لم يعودا بحاجة لابتعاد السيد ويلسون عن المحل، أي أنهما قد انتهيا من حفر النفق. رجحت بعد ذلك أنهما سينفذان مخططهما في أقرب وقت ممكن. وكنت موقنًا أنهما سيتحركان الليلة، فغدًا الأحد، وبذلك لن يلاحظ أحد السرقة حتى يفتح المصرف أبوابه صباح الثلاثاء. عندئذٍ سيكون السيد كلاي وشريكه والذهب قد اختفوا تمامًا.»

قلت معجبًا بما قاله: «أحسنت صنعًا، لقد كانت سلسلة طويلة من الأحداث بدءًا من إعلان الجريدة وصولًا إلى القبض على المجرمين الليلة. وقد كشفت ببراعة عن كل حلقة تربط كل حدث بالآخر. يجب أن يشعر أهالي لندن بالامتنان لك يا هولمز.»

قال هولمز، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة بسيطة: «عزيزي واطسون، إنني لا أفعل ذلك من أجل الشكر، بل التحدي هو الذي يعنيني.»

مغامرة العقيق الأزرق

بعد يومين من عيد الميلاد، قررت زيارة شيرلوك هولمز. أردت أن أهنئه بالعيد. عندما وصلت إلى شارع بيكر، وجدت صديقي مسترخيًا على الأريكة، وتتدلى بجانبه قبعة متسخة قديمة وممزقة على ظهر أحد الكراسي. ورأيت عدسة مكبرة على مائدة بالقرب منه.

سألته: «أظن أن هذه القبعة تتعلق بجريمة ما؟»

فأجابني هولمز: «لا يا عزيزي واطسون. إنها ليست جريمة، بل واحدة من تلك الحوادث البسيطة والغريبة التي تحدث في مدينة كبيرة مثل لندن. لقد حصلت على هذه القبعة صباح عيد الميلاد من ضابط شرطة يُدعى بيترسون. قال لي إنه كان يسير عائدًا إلى المنزل ليلة عيد الميلاد عندما رأى رجلًا يرتدي هذه القبعة ويحمل إوزة على كتفه.»

قلت له: «لعشاء عيد الميلاد بالتأكيد.»

رد هولمز: «بالتأكيد يا واطسون. أوضح بيترسون بعد ذلك أن مجموعة من قُطاع الطرق ظهروا وبدءوا في مضايقة الرجل، ثم دفعوه وأسقطوا قبعته. حاول الرجل الدفاع عن نفسه بالتلويح بعصاه، فكسر نافذة أحد المتاجر بطريق الخطأ.

حينئذٍ جرى بيترسون لمساعدة الغريب المسكين. وعندما رأت العصابة بيترسون متقدمًا نحوهم، فروا. لكن ضحيتهم فرت أيضًا. ظن العجوز بالتأكيد أن بيترسون سيقبض عليه لكسره النافذة.

وهكذا، أصبح الضابط وحده مع القبعة والإوزة. كانت هناك ورقة مربوطة في الطائر، مكتوب عليها: «إلى السيدة هنري بيكر.» وتحمل القبعة الحرفين الأولين من الاسم: «هـ ب». لكن هناك بالتأكيد المئات ممن يحملون هذا الاسم في لندن، وسيكون من المستحيل العثور على هنري بيكر المراد وإعادة القبعة والإوزة إليه.»

استطرد هولمز: «بيترسون يعلم أنني أهتم بأبسط القضايا، فأحضر إلي هذه المتعلقات. ونظرًا لأنني لن أتمكن من الاحتفاظ بالإوزة إلى الأبد، عاد بيترسون وأخذها ليعدها على العشاء الليلة. وفي هذه الأثناء، كنت أستكشف أمورًا بشأن الرجل المجهول عن طريق دراسة هذه القبعة.»

صحت مندهشًا: «لكن ما الذي يمكنك معرفته من فحص قبعة؟»

أجاب هولمز: «أنت تعلم كيف أعمل يا واطسون. إليك عدستي المكبرة، أخبرني ما الذي يمكنك استكشافه عن الغريب الذي نتحدث عنه.»

أخذت القبعة وفحصتها. كانت قبعة سوداء عادية، لكنها بُليت مع الزمن. بهت لون البطانة الحريرية الحمراء. لاحظت الحرفين الأولين من الاسم «هـ ب» بداخلها. كانت هناك ثقوب في الحافة حيث يُستخدم رباط مرن لإحكام القبعة على رأس من يرتديها، لكن الرباط ليس موجودًا. كانت القبعة مشققة ومغبرة ومليئة بالبقع المهترئة التي استخدم أحدهم الحبر لإخفائها.

قلت لصديقي وأنا أعطيه القبعة: «لا يمكنني رؤية أي شيء.»

– «على العكس يا واطسون، أنت ترى كل شيء، لكنك لا تدرك معنى ما تراه.»

فسألته: «إذن ما الذي يمكنك إخباري به بشأن صاحب القبعة؟»

قال هولمز موضحًا: «منذ ثلاثة أعوام، كان صاحب القبعة رجلًا ثريًّا إلى حد ما. لكنه أصبح أكثر فقرًا منذ ذلك الحين. كان شخصًا دقيقًا، لكنه لم يعد كذلك. شيء ما تسبب في هذه التغييرات، ربما المقامرة. وربما يكون هذا هو السبب في أن زوجته لم تعد تحبه.

بالرغم من كل ذلك، لا يزال هذا الغريب يعنى بمظهره، لكنه لا يخرج كثيرًا. وهو شخص في منتصف العمر، ولا يتمتع بصحة جيدة. شعره رمادي اللون، قصه خلال الأيام القليلة الماضية، ويضع عليه كريمًا. وعلى الأرجح أنه يستخدم الشموع لإنارة منزله.»

قلت له: «من المؤكد أنك تمزح يا هولمز.»

– «على الإطلاق يا عزيزي واطسون. كانت هذه القبعة مسايرة لأحدث خطوط الموضة منذ ثلاثة أعوام، كما أنها غالية الثمن، مما يعني أن الغريب كان لديه بالتأكيد ما يكفي من المال لشرائها حينئذٍ. وقد علمت أنه لم يعد ثريًّا كما كان من قبل لأنه لا يمكنه تحمل تكاليف شراء واحدة جديدة الآن، على الرغم من أن قبعته أصبحت قديمة وبالية.

كما أنني علمت أنه كان دقيقًا فيما مضى، لأنه تكبد عناء تزويد القبعة برباط مرن، انقطع على الأرجح، ولم يستبدله لأنه لم يعد دقيقًا كما كان.»

استكمل هولمز حديثه قائلًا: «أما عن اعتنائه بمظهره، فيرجع إلى أنه يحاول إخفاء البقع المهترئة في القبعة بالحبر. انظر إلى البطانة وسترى آثار شعر صغيرة توضح سن صاحب القبعة ولون شعره. كما أنها تشير إلى أنه قد قص شعره مؤخرًا. ويمكنك كذلك شم رائحة كريم الشعر.»

تابع هولمز: «الغبار الموجود على القبعة ليس من النوع الذي يوجد خارج المنزل، بل الذي يتجمع داخله. ويشير إلى أن الرجل يقضي وقتًا أطول في المنزل مقارنة بأي مكان آخر. كما أن علامات التعرق الموجودة داخل القبعة تشير إلى أن الرجل يعرق حتى أثناء السير، مما يعني أنه ليس لائقًا بدنيًّا.»

قاطعته قائلًا: «لكنك قلت أيضًا إن زوجته لم تعد تحبه.»

رد هولمز: «لم تُنظف هذه القبعة منذ أسابيع. مَن الزوجة المحبة التي تترك زوجها يغادر المنزل وقبعة مغبرة كهذه على رأسه؟»

قلت له: «لكنه ربما يكون أعزب؟»

– «لقد نسيت الملاحظة المرفقة بالإوزة، المكتوب فيها: «إلى السيدة هنري بيكر.»»

– «فهمت. لكن كيف لك أن تعرف أنه ينير منزله بالشموع وليس بالغاز؟»

أجاب هولمز: «هناك الكثير من بقع الشمع على قبعته، التي ما كنا لنراها لو كان ينير منزله بالغاز.»

في تلك اللحظة انفتح الباب فجأة ودخل ضابط الشرطة بيترسون مندفعًا، وصاح قائلًا: «سيد هولمز! انظر ماذا وجدت زوجتي داخل الإوزة وهي تعد العشاء!» ومد بيترسون يده نحونا وبداخلها حجر كريم جميل أزرق اللون. كان أصغر قليلًا من حبة الفول، لكنه كان يلمع ويتلألأ كنجم أزرق براق.

صاح هولمز مندهشًا: «سيد بيترسون! يمكنني التعرف على هذا الحجر، إنه جوهرة العقيق الأزرق الثمينة التي تمتلكها كونتيسة موركار!»

سألته: «هل تعني الجوهرة التي سُرقت؟»

وكانت إجابة هولمز: «نعم يا واطسون. لقد فُقدت منذ خمسة أيام فقط، في فندق كوزموبوليتان. وقد قرأت عن الموضوع في الجريدة. ألقت الشرطة القبض على سباك يُدعى جون هورنر، واتهمته بسرقة الجوهرة.

يبدو أن جيمس رايدر، مدير الفندق، قد ترك هورنر في غرفة الكونتيسة لإصلاح السباكة. وعندما عاد السيد رايدر، كان السباك غير موجود والجوهرة قد اختفت. وجاءت

رواية كاثرين كوزاك، خادمة الكونتيسة، مطابقة لذلك. بدأت الشرطة جهودها على الفور، وقبضت على هونر في تلك الليلة. لم يعثروا على الجوهرة المفقودة، ويصر السباك على أنه بريء.»

استكمل هولمز حديثه قائلًا: «إذن، كيف وصلت الجوهرة من الكونتيسة إلينا؟ نعلم أنها جاءت من الإوزة، التي يمتلكها هنري بيكر. أعتقد أن أول خطوة هي أن نعثر على السيد بيكر، ويمكننا فعل ذلك عن طريق وضع إعلان في الجريدة.»

أخذ هولمز ورقة وقلمًا، وتحدث أثناء كتابته قائلًا: «عُثر على إوزة وقبعة سوداء تخصان السيد هنري بيكر بإحدى نواصي شارع جوودج. الرجاء الحضور إلى بناية رقم ٢٢١ب شارع بيكر للحصول عليهما الساعة السادسة ونصف من مساء اليوم.»

قال هولمز: «والآن يا سيد بيترسون، هل تتكرم بفعل أمرين من أجلي؟ لتأخذ هذا الإعلان وتضعه في جميع الصحف المسائية. ثانيًا، رجاءً أحضر لي إوزة أخرى للسيد بيكر!»

عندما غادر بيترسون حمل هولمز الجوهرة في الضوء، وقال: «اُكتشف هذا الحجر يا واطسون منذ عشرين عامًا فقط. وقد عُثر عليه على ضفاف نهر أموي جنوب الصين. ويحمل قيمة كبيرة لأن أغلب الأحجار المماثلة له تحمل لونًا أحمر ياقوتيًّا، وليس أزرق. وكما هي الحال مع جميع الأحجار الكريمة، تترك هذه الجوهرة آثار جريمة في أي مكان توجد به. وقعت بالفعل جريمتا قتل والعديد من السرقات بسببها حتى الآن. سأضعها في مكان آمن، وأخبر الكونتيسة أن حجرها الكريم معنا.»

سألته: «وماذا ستفعل بشأن جون هورنر السباك؟ وهنري بيكر؟»

– «لا أعلم أي شيء عن هورنر يا صديقي، ولا أعتقد أن السيد بيكر مذنب بأي شيء. لكننا سنتحقق من ذلك عندما يستجيب للإعلان الذي نشرناه. أرجو أن تنضم إلي الليلة يا واطسون. فإن أسعدنا الحظ، فسنتمكن من سؤاله عن طائره.»

حضر هنري بيكر إلينا ذلك المساء بحثًا عن إوزته الضائعة. كان رجلًا ضخمًا ذا وجه عريض ولحية بنية اللون. أعطاني انطباعًا أنه رجل مثقف، لكن ملابسه الرثة أوضحت أنه مر بأوقات عصيبة.

بدأ هولمز الحديث قائلًا: «أتساءل لماذا لم تنشر إعلانًا عن متعلقاتك المفقودة في الجريدة؟»

رد بيكر: «حسنًا يا سيد هولمز، لم أعد أملك من المال ما كنت أملكه من قبل، وكنت موقنًا أن اللصوص هم من سرقوا الإوزة. فرأيت أن الدفع مقابل إعلان مضيعة للمال.»

قال صديقي: «إنني أتفهم. بالمناسبة يا سيد بيكر، يؤسفني أننا قد أكلنا إوزتك. كانت ستفسد لو انتظرنا طويلًا …»

تأوه زائرنا وبدت عليه خيبة أمل شديدة.

أشار هولمز إلى الطائر الموجود على الطاولة، وقال: «لكن لا تقلق، لقد اشترينا لك واحدة أخرى. ولا يزال لدينا بالطبع ريش إوزتك وعظامها، إذا كنت ترغب في الحصول عليها.»

ضحك السيد بيكر وهو يقول: «لم قد أرغب في ذلك الآن؟ كلا، سوف آخذ هذه الإوزة فحسب، وأمضي في سبيلي.»

قال هولمز، وهو ينظر إليّ رافعًا حاجبيه: «عظيم! بالمناسبة يا سيد بيكر، تُرى هل يمكنك إخباري من أين أتيت بطائرك اللذيذ؟ فأنا أود أن أعلم أين يمكنني الحصول على واحد مثله.»

فقال: «حسنًا يا سيد هولمز. اعتاد بعضنا ارتياد حانة ألفا، وأقام صاحب الحانة ما يُعرف بـ«نادي الإوز». فكنا جميعًا ندفع كل أسبوع على مدار العام الماضي مبلغًا صغيرًا من المال، حتى أصبح لدى كل منا ما يكفيه لشراء إوزة لعيد الميلاد. وهكذا حصلت عليها، والآن، إن لم تمانعا، سآخذ هذا الطائر واستمتع أخيرًا بعشاء عيد ميلاد فاخر.»

بعد أن تركنا الزائر، اتبعت أنا وهولمز هذا الخيط، فغادرنا قاطعين طرقات لندن الباردة وصولًا إلى حانة ألفا. وهناك وجدنا طاولة هادئة، وطلبنا من صاحب الحانة كأسين من نبيذ التفاح الساخن.

قال هولمز: «أرجو أن يكون ما تقدمه من نبيذ جيدًا مثل ما لديك من إوز.»

قال صاحب الحانة وهو يصب المشروب الساخن: «ما لديّ من إوز؟»

– «نعم، لقد كنت أتحدث لتوي مع السيد هنري بيكر بشأنه.»

قال صاحب الحانة: «آه، حسنًا، أنا لا أملك هذا الإوز، لقد حصلت عليه من رجل يُدعى بريكنبريدج بسوق كوفينت جاردن.»

أنهيت أنا وهولمز مشروبنا، وتوجهنا إلى سوق كوفينت جاردن. عثرنا على السيد بريكنبريدج، وكان حينها يغلق لتوه الكشك الذي يبيع فيه سلعه.

قال هولمز لبريكنبريدج: «أرى أن بضاعتك قد نفدت. يا للحظ السيئ! هل يمكنك إخباري من أين تحصل على الطيور التي تبيعها؟»

فوجئنا بأن سؤال هولمز قد أغضب بائع الطيور، فقال بصوت مرتفع: «والآن يا سيد، ما الذي ترمي إليه؟ لست أول من يزعجني اليوم بشأن الإوز الذي أبيعه. «من أين جلبته؟ ولمن بعته؟» لم أسمع في حياتي قط جلبة كهذه تُثار حول طائر.»

قال هولمز: «آسف، كل ما في الأمر أنني قد راهنت على أن هذا الإوز قد رُبي في الريف.»

قال بريكنبريدج: «حسنًا، لقد خسرت الرهان إذن؛ لقد رُبي هذا الإوز في المدينة. انظر إلى سجلي، إنه يوضح ممن اشتريت الإوز، ولمن بعته. وقد ربت سيدة تُدعى أوكشوت الطيور التي بعتها لحانة ألفا. ومذكور هنا أنها تعيش في شارع بريكستون بلندن!»

تركت أنا وهولمز السيد بريكنبريدج ليستكمل إغلاق الكشك. وقفنا في الشارع نفكر فيما إذا كان سيجب علينا زيارة السيدة أوكشوت على الفور أم الانتظار حتى الصباح. سمعنا حينئذٍ صياحًا. كان مصدره السيد بريكنبريدج. كان يصيح في وجه رجل صغير الحجم قائلًا: «توقفوا عن إزعاجي! لقد نلت كفايتي من الأسئلة اليوم عن الإوز الذي أبيعه! لتذهب وتسأل السيدة أوكشوت عن إوزها!» ثم استدار وابتعد ضاربًا الأرض بقدميه في غضب.

توجه هولمز إلى الرجل صغير الحجم، وقال له: «عذرًا، اسمي شيرلوك هولمز، وأعتقد أن بإمكاني أنا وصديقي مساعدتك. أرى أنك تبحث عن بعض الإوز. لقد باعته السيدة أوكشوت للسيد بريكنبريدج، الذي باعه بدوره لحانة ألفا. ومن الحانة انتقلت واحدة من هذا الإوز للسيد هنري بيكر.»

صاح الرجل: «سيد هولمز، لا يمكنك تخيل كم هو مهم أن أعثر على إوزتي.»

قال هولمز: «في هذه الحالة، أرجو أن تحضر إلى مسكني حيث يمكننا التحدث يا سيد ...؟»

أجاب الغريب: «اسمي جون روبنسون.»

قال هولمز وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة: «لا، لا، أنا أعني اسمك الحقيقي. أنا مصرٌّ على معرفته.»

تورَّد وجه الغريب، وبدا عليه الانزعاج، وقال: «حسنًا، اسمي الحقيقي هو جيمس رايدر.»

قال هولمز: «هذا أفضل، أفضل بكثير يا سيد رايدر، مدير فندق كوزموبوليتان.»

وفي مسكننا أخذت أنا وهولمز ورايدر ندفأ أنفسنا بجانب المدفأة. بدأ هولمز الحديث قائلًا: «والآن يا سيد رايدر، ترغب في معرفة مكان إوز السيدة أوكشوت، أو بالأحرى، إوزة واحدة بعينها، تلك الإوزة البيضاء ذات العلامة السوداء على ذنبها.»

صاح جيمس رادير قائلًا: «نعم، هل يمكنك إخباري أين ذهبت؟»

«لقد أتت إلى هنا، وكانت إوزة مميزة بحق. في الواقع، لقد وضعت بيضة بعد أن ذُبحت. وكانت بيضة زرقاء صغيرة يفوق بريقها أية بيضة أخرى.» ومد هولمز يده عارضًا على ضيفنا جوهرة العقيق الأزرق. حدق رايدر بها، وهب من على كرسيه وقد شحب وجهه.

صاح هولمز معلنًا: «لقد قُضي الأمر يا رايدر. فأنا أعلم معظم ما حدث. وقد تحسن الشرطة معاملتك إذا أخبرتنا الآن بما تعرفه.»

بدا رايدر وكأنه سيُغشى عليه، فساعدته في الاعتدال مرة أخرى على كرسيه، وقال: «إنها كاثرين كوزاك، خادمة الكونتيسة. هي من أخبرتني بشأن الجوهرة.»

قال هولمز: «وقررت أن تسرقها. كنت تعلم أن جون هورنر، السباك، لديه مشكلات سابقة مع الشرطة؛ فخططت لوجوده في غرفة الكونتيسة، وعندما غادر سرقت الجوهرة، ثم اتصلت بالشرطة وأخبرتهم بأمر هورنر، فألقوا القبض عليه.»

قال رايدر متوسلًا: «لترحمني، أرجوك يا سيد هولمز! فلم أتورط من قبل في أية مشكلات، ولن أكرر فعلتي ثانيةً! أرجوك!»

قال هولمز: «حقًّا يا سيد رادير، أتطلب العفو؟ لكنك كنت على استعداد أن ترسل السيد هورنر إلى السجن لجريمة ارتكبتها أنت. كفى! لتخبرنا ببقية القصة.»

تابع رايدر رواية ما حدث: «عند القبض على هورنر، خشيت أن تستجوبني الشرطة، وأن يفتشونني بحثًا عن الجوهرة. فذهبت إلى منزل أختي ...»

قال هولمز: «السيدة أوكشوت.»

رد رادير: «نعم، ذهبت إلى هناك وفكرت فيما سأفعله بعد ذلك. تذكرت صديقًا قديمًا كان قد قضى بعض الوقت في السجن. كنت أعلم أنه قد يساعدني في بيع الجوهرة، فقررت أن أذهب إلى كيلبورن حيث يعيش. لكن ظل القلق يساورني بشأن عثور الشرطة على الجوهرة معي.

كنت أجلس في الفناء الخلفي بمنزل أختي، وكان مليئًا بالإوز الذي تربيه. وهكذا جاءتني الفكرة. وعدتني أختي بالحصول على أحد تلك الطيور هدية بمناسبة عيد الميلاد. فقررت أن أحشر جوهرة العقيق أسفل حلق الإوزة، ثم آخذها معي. وإذا استوقفتني الشرطة، فلن يخطر ببالهم أبدًا فحص الإوزة.

أمسكت بأحد الطيور، وكانت تلك الإوزة ذات العلامة السوداء على ذنبها. فتحت منقارها، وحشرت الجوهرة أسفل حلقها. خرجت أختي من المنزل، وسألتني عما كنت

أفعله. وفي تلك اللحظة، أفلتت الإوزة من بين يدي، ورفرفت عائدةً بين باقي الإوز. قلت لها إنني سآخذ هدية عيد الميلاد، فأمسكت بها وذبحتها. وذهبت إلى كيلبورن.»

تابع رايدر حديثه: «لك أن تتخيل فزعي عندما فتحت الطائر أمام صديقي، ولم أعثر على شيء. وقع خطأ جسيم، فأسرعت عائدًا إلى المدينة، هرولت إلى منزل أختي، واندفعت إلى الفناء الخلفي لأجد أن كل الطيور قد اختفت. لقد أرسلتها إلى التاجر المدعو بريكنبريدج. سألتها عما إذا كانت هناك إوزة أخرى ذات علامة سوداء على ذنبها، وجاءت إجابتها بالإيجاب. لقد أخذت الإوزة الخطأ!

ركضت إلى سوق كوفينت جاردن بأقصى سرعة، لكن لم يخبرني بريكنبريدج أين ذهبت إوزتي؛ ولهذا السبب أنا هنا الآن. لقد ارتكبت جريمة بشعة.» وأخذ رايدر يبكي بحرقة، وهو يدس وجهه بين يديه.

ساد الصمت فترة طويلة، وأخذ هولمز ينقر بأظافره على الطاولة، ثم نهض وفتح الباب المطل على الشارع، وقال: «اخرج!»

وفي لمح البصر، اندفع رايدر مسرعًا من الباب، واختفى في ظلام الليل.

قال هولمز: «ربما أكون بذلك أرتكب خطأً، لكنني لا أظن أن السيد رايدر سيخرق القانون ثانيةً. كما أن هورنر سيُطلق سراحه، وستعود جوهرة العقيق الأزرق إلى صاحبتها. وفي نهاية الأمر، نكون قد أنقذنا الرجل من قضاء حياته في السجن.»

واستكمل هولمز حديثه قائلًا: «وفي النهاية، فقد تمكننا من فك لغز قضية غاية في الإثارة، ويرجع الفضل في ذلك إلى هذا الرجل الأحمق … أليس كذلك يا عزيزي واطسون؟»

مغامرة العِصابة المنقَّطة

همس هولمز، وهو يقف بجواري: «آسف لإيقاظك يا واطسون. لكن لدينا زائر، هناك سيدة شابة في غرفة الجلوس ترغب في رؤيتنا. وأنا موقن أن الأمر هام لمجيئها في هذا الوقت. هل تود الانضمام إليَّ؟»

أجبته بنعاس: «عزيزي هولمز، لا يمكنني أن أفوت هذه الفرصة لأي سبب.»

كنت أمكث مع هولمز في تلك الليلة، نظرًا لوجود زوجتي خارج المدينة. وقد كنت أستمتع دائمًا بمساعدة زميلي فيما يجريه من تحقيقات. كانت مشاهدته وهو يجمع الأدلة، ويستخدمها في حل الجرائم أمرًا مذهلًا. ارتديت ملابسي سريعًا ولحقت به في غرفة الجلوس. رأينا امرأة ترتدي حجابًا أسود تغطي به وجهها.

بدأ رفيقي الحديث قائلًا: «صباح الخير يا سيدتي. اسمي شيرلوك هولمز، وهذا دكتور واطسون، صديقي وشريكي. كيف يمكننا مساعدتك؟»

رفعت المرأة الحجاب من على وجهها، وتمكننا من ملاحظة شحوبها وانزعاجها. بدأت الحديث قائلةً: «إنني خائفة للغاية يا سيد هولمز.»

قال هولمز محاولًا طمأنتها: «سنبذل أقصى جهدنا لمساعدتك. ألاحظ أنك قد سافرت إلى لندن بالقطار هذا الصباح، وأنك قد وصلت إلى محطة القطار في عربة تجرها الخيول.»

سألت ونظرة الدهشة ترتسم على وجهها: «كيف عرفت ذلك؟»

أوضح هولمز: «تظهر تذكرة العودة من ثنية قفازك، كما أن الكُم الأيسر لمعطفك ملطخ بقطرات وحل حديثة، وما كان ليتلطخ بها سوى عن طريق الجلوس بالجانب الأيسر لعربة مفتوحة.»

فردت: «أنت محق. لقد سافرت كل هذه المسافة لأنني سأجن يا سيد هولمز. ليس لدي من ألجأ إليه، يجب أن تساعدني.»

استرخى هولمز على كرسيه، وأغلق عينيه، وأنصت: «رجاءً يا سيدتي، أخبرينا بمشكلتك.»

– «أُدعى هيلين ستونر، وأعيش مع زوج والدتي، دكتور جريمسبي رويلوت. وهو آخر أفراد إحدى الأسر العريقة، التي كانت تتمتع بالثراء في الماضي. لكن مع مرور السنوات، فقد آل رويلوت ثروتهم، وكل ما تبقى هو منزل العائلة: ستوك موران.

كان زوج والدتي يعيش في الهند منذ سنوات، وكان طبيبًا ناجحًا هناك. وهناك التقى بوالدتي، وتزوجها. لم أكن قد تجاوزت حينها أنا وأختي التوءم، جوليا، الثانية من العمر.»

تابعت قائلةً: «بدأت مشكلات زوج والدتي في الهند. ففي نوبة غضب، تورط في عِراك، وقتل أحد الأشخاص، وقضى سنوات طوال في السجن. وعند إطلاق سراحه، انتقلنا إلى إنجلترا، حيث عاد لمزاولة مهنة الطب، لكنه صار شخصًا مختلفًا عندئذ.

بعد عودتنا بفترة قصيرة، توفيت والدتي، تاركةً كل أموالها لزوجها، على أن أحصل أنا وأختي على بعض منها، لكن عندما نتزوج. وبرحيل والدتي تركنا لندن وانتقلنا للعيش في قصر ستوك موران.»

ازداد انزعاج الآنسة ستونر وهي تستكمل قصتها. فقالت: «أصبح زوج والدتي أكثر اضطرابًا بعد ذلك. وازداد حدة في طباعه، وأُلقي القبض عليه لاحقًا بتهمة الشجار. أصبح الناس يخافونه، واقتصر أصدقاؤه على مجموعة من المسافرين الفقراء الذين كانوا يجوبون الريف، ويزورون في بعض الأحيان ستوك موران. وكان يسمح لهم في كثير من الأحيان بالتخييم في الغابة القريبة من المنزل.

أخذ سلوكه يزداد غرابة كل يوم. كان يحب الحيوانات البرية، فجلب معه من الهند فهدًا وقرد بابون، وتركهما يركضان بجموح في الغابة المحيطة بمنزلنا.

صرت أنا وأختي جوليا تعيستين. ولم يعد هناك خدم يرغبون في البقاء معنا، فتوليت أنا وهي الاهتمام بهذا المنزل الكبير بأنفسنا. كان الأمر عسيرًا علينا للغاية، وكانت جوليا في الثلاثين من عمرها عندما توفيت، لكنها بدت أكبر من ذلك بكثير.»

سأل هولمز: «هل توفيت أختك؟»

أجابت زائرتنا: «نعم، لقد توفيت منذ عامين. ووفاتها هذه هي الأمر الذي أود الحديث معك بشأنه. قبل هذا الحادث المؤسف مباشرةً، عُقدت خطبة جوليا، ولم يعارض زوج والدتي. لكن قبل الزواج مباشرةً، حدث شيء مريع.»

عندما سمع هولمز ذلك، فتح عينيه، ونظر إلى زائرتنا، وقال: «لا تتجاهلي أي تفاصيل.»

تابعت الآنسة ستونر حديثها: «عشت أنا، وزوج والدتي، وأختي في جزء واحد فقط من هذا المنزل القديم. وكانت غرفة جوليا تقع بين غرفتي وغرفة زوج والدتي في الطابق الرئيسي. ليست هناك أبواب تصل بين الغرف مباشرة، لكنها تشترك جميعًا في الرواق ذاته. ونوافذ الغرف تطل على الفناء.

في تلك الليلة منذ عامين، كان ثلاثتنا في غرفنا. وكنت لا أزال مستيقظة عندما أتت أختي إلى غرفتي. قالت إنها تشم دخان سجائر زوج والدتي، الأمر الذي كان يزعجها. فجلسنا، وتحدثنا عن زفافها حتى الساعة الحادية عشرة تقريبًا. وحينئذٍ نهضت لتعود إلى غرفتها.

وعندما كانت جوليا تهم بالرحيل، سألتني عما إذا كنت قد سمعت صوت صفير أثناء الليل. وأخبرتني أنها سمعت صوتًا كهذا على مدار الليالي القليلة الماضية، لكنها لم تعلم من أين أتت هذه الضوضاء.

قلت لها ربما يكون المصدر هو المسافرين الذين كانوا يخيمون بالقرب من المنزل. وقد كان نومي أعمق من نومها، الأمر الذي يفسر عدم سماعي لأي شيء. وبعد ذلك ألقت كلٌّ منا على الأخرى تحية المساء، وعادت أختي إلى غرفتها وسمعتها وهي تغلق الباب بالقفل.»

سأل هولمز: «هل اعتدتما إغلاق بابيكما بالقفل؟»

أجابت آنسة ستونر: «نعم، كنا خائفتين من حيوانات زوج والدتنا البرية.»

قال هولمز: «تابعي.»

فتابعت حديثها: «حسنًا، لم أتمكن من النوم في تلك الليلة، وظللت مستيقظة في السرير لساعات، وفجأة سمعت جوليا تصرخ، فقفزت من على سريري وركضت إلى الرواق. في تلك اللحظة، سمعت صوت صفير منخفضًا، تبعه صوت رنين عالٍ.

وفي الرواق، شاهدت باب غرفة نوم جوليا وهو ينفتح، وأختي الحبيبة تخطو خارج غرفتها ببطء. رأيت الرعب في عينيها. بالكاد تمكنت من الوقوف، وأخذت تتحرك وكأنها متألمة. جريت نحوها وهي تقع على الأرض. وعندما كنت أحملها بين ذراعي، صاحت قائلةً: «هيلين! إنها العِصابة! العِصابة المنقَّطة!» مدت إحدى يديها، وأشارت إلى غرفة زوج والدتنا. ناديت عليه، وظهر سريعًا، لكن لم يكن هناك ما يمكننا فعله. وفي تلك الليلة، ماتت جوليا.»

سأل هولمز: «وهل أنت متأكدة من سماعك للصفير وصوت الرنين المعدني؟»

أجابت الآنسة ستونر: «أعتقد ذلك.»

سأل هولمز: «بالتأكيد فحص أحد الأطباء جثمان أختك، فإلام توصل؟»

– «كان على علم بحدة طباع زوج والدتنا يا سيد هولمز، وكان حذرًا للغاية، لكنه لم يتوصل إلى ما قتل جوليا. لا يزال الأمر لغزًا. فنحن نعلم أن جوليا قد أغلقت النوافذ وباب غرفة النوم بالأقفال، وفتشنا الغرف بعناية، لكن لم نتمكن من العثور على أي مداخل خفية. من المؤكد أن أختي كانت وحدها عندما لقيت حتفها. هذا إلى جانب عدم وجود أي علامات على جسمها.»

سأل هولمز: «ماذا عن إمكانية استخدام سُم ما؟»

أجابت: «لم يجد الطبيب أثرًا له، وأعتقد أن أختي عندما ذكرت كلمة «عِصابة»، كانت تعني «عِصابة» من الناس، كعِصابة المسافرين.

كان ذلك منذ عامين، وقد جئت لمقابلتك يا سيد هولمز، لأن خطبتي قد عُقدت منذ شهر. ولم يعارض زوج والدتي هذه المرة أيضًا، ومن المقرر أن أتزوج هذا الربيع.»

تابعت الحديث، وقد ارتسمت على وجهها نظرة خوف: «لكن منذ يومين، بدأ إجراء إصلاحات ببعض جدران المنزل. ونظرًا لهذه الإصلاحات، كان لزامًا عليَّ الانتقال إلى غرفة نوم أختي. وكما يمكن أن تتخيل لم أشعر بالراحة. وليلة أمس، بينما كنت مستلقية على السرير، سمعت صوتًا مفاجئًا، كان صوت صفير منخفضًا! قفزت من على السرير، وأضأت مصباحًا. لم أر أي شيء، لكنني كنت خائفة حتى إنني ارتديت ملابسي، ولم أجرؤ على العودة إلى السرير. وفي الصباح غادرت المنزل، وأتيت إلى لندن لألتمس مساعدتك.»

قال صديقي: «أحسنت صنعًا! لكنك يا آنسة ستونر، لم تخبريني بكل شيء عن زوج والدتك.»

سألت: «ماذا تعني؟»

أمسك هولمز بيد الفتاة بين يديه، ورفع معصمها. كانت هناك علامات على بشرتها وكأن يدًا شديدة القوة قد أمسكت بها. خفضت زائرتنا رأسها، وقالت: «إنه رجل مضطرب يا سيد هولمز.»

صمت صديقي، وحدق في النار التي كانت تدفأ الغرفة، وأخيرًا قال: «ليس أمامنا وقت لنضيعه. إذا أتينا إلى منزلك — يا آنسة ستونر — اليوم، فهل سيمكننا تفقد الغرف دون أن يعلم زوج والدتك بالأمر؟»